بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (١) إلى الآية (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير سورة "الم" السجدة، وهي مكية:

فضل سورة "الم" السجدة:

قوله: **هي مكية**، بعضهم يستثني بعض الآيات بناء على معنىً يلوح له، والأصل في السورة النازلة بمكة أن جميع الآيات مكية، وأن النازلة في المدينة كل الآيات مدنية، وأن مرجع ذلك إلى النقل، يعني لا يُستثنى من هذا شيء فيقال: إلا هذه الآية، إلا بالنقل، وأما باعتبار المعنى: كون هذا المعنى يتحدث عن اليهود، أو يتحدث عن المنافقين فمثل هذا لا يكفي وحده؛ لأن من القرآن ما ينزل قبل وقوعه -قبل وقوع حكمه-، وليس المقصود بالحكم الحلال والحرام، وإنما المقصود ما تضمنه مما أخبر عنه، وتحدث عنه، فلا إشكال، والعلماء يجيبون عن هذا بأجوبة معروفة، فهذه الدعاوى الكثيرة التي تجدونها في كتب التفسير إلا آية كذا، إلا آية كذا، لمجرد معنى لاح للمفسر فإن هذا لا عبرة به، والله تعالى أعلم.

قال: روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في الفجر يوم الجمعة: {الم * تَنزِيلُ} السجدة، و{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ} [سورة الإنسان:١]. ورواه مسلم أيضاً.

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينام حتى يقرأ {الم * تَنزِيلُ} السجدة و{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [سورة الملك:١] تفرد به أحمد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة السجدة:١-٣].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة "البقرة" بما أغنى عن إعادته هاهنا.

هذه الحروف المقطعة لا معنى لها في نفسها، على الأرجح، وأنها تشير إلى الإعجاز، أن هذا القرآن مركب من الحروف التي تركبون منها الكلام، ومع ذلك أنتم عاجزون عن الإتيان بمثله.

وقوله: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ} أي: لا شك فيه ولا مرية أنه نزل، {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

قوله: {تَنزِيلُ الْكِتَابِ} يحتمل أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أو أن يكون المبتدأ هو قوله: {الم}، وما بعده خبر، إلى غير ذلك من الاحتمالات.

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ}، قال هنا: **لا شك فيه ولا مرية**، والريب أخص من الشك، هو شك خاص، ليس كل شك يكون ريباً، فالريب كما في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [سورة البقرة:٢] شك مع قلق، الشك

الذي يحصل معه قلق يكون ارتياباً، تقول: أنا مرتاب من كذا، في قلبي ريب من الأمر الفلاني، في قلبي ريب من فلان، شك مع قلق، بخلاف ما لو قلت: أنا عندي شك في الأمر الفلاني، شك مقلق، فالقرآن ليس فيه شيء من هذا، و{تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} يحتمل أن يكون المراد: {لاَ رَيْبَ فِيهِ}، بمعنى أنه لا يتضمن ما يوجب الريب، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء:٨٢]، فإذا قرأه التالي له فإنه لا يجد فيه ما يثير الريب، ما يثير الشكوك والريب من التناقض أو الضعف في التراكيب والعبارات وما أشبه ذلك، وإنما قد أحكمه الله -عز وجل- في ألفاظه ومعانيه، ليس فيه ما يوجب الريب، وأن النفي إذا جاء في صفات الله -عز وجل- فإنه يقتضي ثبوت كمال ضده، وذلك يكون في الله -عز وجل-، وأوصافه، وكذلك في النبي -صلى الله عليه وسلم-، كقوله مثلاً: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} [سورة النجم:٣]، {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير:٢٤]، وكذلك القرآن وأوصاف القرآن، فهذه الثلاث إذا جاء النفي فيها فإنه يقتضي ثبوت كمال ضده، فإذا قال الله عن القرآن: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} فإن هذا يقتضي أنه متضمن لكمال اليقين، وأن من أراد اليقين فعليه أن يقبل على هذا القرآن، وذكرت في الكلام على مقاصد المتدبرين في العام الماضي في رمضان -ليس رمضان هذا القريب، الذي قبله- أن من هذه المقاصد أن يقرأه من أجل أن يتحقق من مصدر هذا القرآن المتكلم به، أنه من عند الله -عز وجل-، وهذا إنما يكون لمن احتاج إلى ذلك، كان عنده تردد، فتجد من الناس من يقرأ القرآن ليصل إلى هذه النتيجة، فيعلم أن هذا ليس من كلام البشر ولا يمكن أن يصدر عن البشر؛ لأمور كثيرة، فهنا "لا ريب فيه" متضمن لكمال اليقين، فهذا معنى أنه نفى عنه الريب، يعني: ليس فيه ما يوجب الريب.

المعنى الثاني: {لا رَيْبَ فِيهِ} أنه من الله، لا شك أنه من الله، فيكون الكلام يرتبط بعضه ببعض هنا، أعني أوله وآخره مع هذه الجملة، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، لا شك أنه من الله، ولكن على المعنى الذي قبله، تنزيل الكتاب من رب العالمين، فتكون هذه الجملة معترضة، فيها ذكر صفة هذا الكتاب، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ} لا شك فيه، لا يتضمن ما يوجب الريب، وأنه منزل من الله -تبارك وتعالى-، وفي سورة البقرة إذا وقفت عند قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ}، {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ} يعني: هذا الكتاب دخول "ال" عليه تدل على الوصف الكامل، تقول: هذا الرجل، هذه الشجاعة، هذا العلم، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ}، لا شك، {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وذكرت حينها أن الوقف على قوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} أبلغ في المعنى؛ لأن الأول يفهم منه: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فيه هدى، لكن الثاني جعله كله هدى، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، هو هدى، وهذا أبلغ، {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فهذا أبلغ، كون القرآن بهذه المثابة ويقال عنه هذا: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}، بل يقولون: {افْتَرَاهُ} أي: اختلقه من تلقاء نفسه.

باعتبار أن "أم" هذه هي المنقطعة، بمعنى "بل".

{بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} أي يتبعون الحق.

قوله هنا: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}، بعضهم يقول: إن "ما" هذه موصولة، ويكون المعنى: لتنذر قوماً الذي أنذر، لكنه بعيد كل البعد في هذه الآية، لكن لو قيل هذا في قوله: {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ

فَهُمْ غَافِلُونَ} [سورة يس:٦] يعني: لتنذرهم الذي أُنذر آباؤهم، لكن هنا: {مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}، الذي أتاهم نذير من قبلك، لا يكون ذلك، ولهذا فإن "ما" هنا نافية، {مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}، قيل: هم العرب، وبعضهم يعبر يقول: أهل الفترة، باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث لجميع الأمم، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث على فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، فالذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من أهل الفترة بعدما اضمحلت آثار الرسالة فهؤلاء ما أتاهم من نذير من قبلك، من قال: العرب، فهذا باعتبار أنه ما جاءهم نبي بعد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، كما قال الله عنهم في مواضع من كتابه ما يدل على هذا المعنى، {أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [سورة الأنعام:١٥٦] يعني: لئلا تقولوا، فلم ينزل عليهم كتاب، ليسوا بأهل كتاب، ولهذا امتنّ عليهم بقوله: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [سورة الجمعة:٢]، وقال: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [سورة فاطر:٣٢]، وهم هذه الأمة، بعدما كان ينزل على بني إسرائيل، فـ{مَّا أَتَاهُم}، هذه "ما" نافية، {مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} أيّ نذير، بمعني: رسول، و"مِن" هذه إذا دخلت على النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام -وهي المقامات التي تدل فيها النكرة على العموم- فإنها تنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم، يعني أقوى الدلالة على العموم، {مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ} أيّ نذير، ولهذا ما يوجد في بعض كتب التواريخ يذكرون أسماء رجال من العرب، يقولون: هذا نبي كان للعرب، وحصل له كذا، وحصل له كذا هذا لا صحة له، وتجدونه في بعض كتب التفسير، وقد مضى بعض ذلك عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَصْحَابُ الرَّسِّ} [سورة ق:١٢]، فكل هذا لا يصح، -والله أعلم-، {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} مضى الكلام على مثل هذا، أن "لعل" تكون بمعنى التعليل، أي: من أجل أن يهتدوا، وأنها تأتي بمعنى الترجي، ويرد السؤال على هذا كيف يحصل الترجي في القرآن من كلام الله -عز وجل-، والله يعلم عواقب الأمور، وإنما يكون الترجي مما لا يعلم العواقب؟، والجواب عن هذا أن الخطاب قد يتوجه إلى المخاطب باعتبار نظره، باعتبار حاله هو كقوله تعالى لموسى وهارون -عليهما السلام-: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا} [سورة طه:٤٤] يعني: على رجائكما {يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة السجدة:٤-٦].

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش.

هذه الأيام الستة، من أهل العلم من السلف فمن بعدهم من يقول: إنها ستة أيام من أيام الدنيا، من أيامنا هذه، وبعضهم يقول: إنها ستة أيام من أيام الله -عز وجل-، {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [سورة الحج:٤٧]، وهذا قال به الضحاك، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، والله -عز وجل- قادر على خلقها بـــ"كن"، وما يذكره بعضهم من أن ذلك يفهم منه ويتعلم منه الأناة غير مدفوع، سواء قيل: إن تلك ستة أيام من أيام الله -عز وجل-، أو ستة أيام من أيام الدنيا، مع كون الله -عز وجل- قادر على خلقها بـــ"كن".

قال: وقد تقدم الكلام على ذلك.

{مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ} أي: بل هو المالك لأزمّة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه.

الولي يأتي بمعنى الناصر، والشفيع معروف من يشفع غيره، فيتقوى به؛ ليحصّل حاجته وطلبته، فمثل هذا كما سبق أنه لا يتأتى لأحد، {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً} [سورة البقرة:١٢٣]، فليس له ناصر من دون الله -عز وجل- ينصره ويخلصه، ولا شفيع يشفع له ويتوسط فيُترك، فليس ثمة إلا الصدق مع الله -عز وجل- والإقبال عليه والتوبة، والعمل بطاعته ومرضاته.

{أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد، أو وزير أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

مثل هذه الآيات {أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ} جاء بها بعد هذه المعاني من كمال ملكه -سبحانه وتعالى-، وقدرته وخلقه وربوبيته، وكما في الآيات السابقة قبل ذلك، كل هذا يوجب للإنسان أن يتذكر، وأن يعتبر، وأن يتفكر، وأن يدرك أنه لا سبيل له إلا بأن يعبد الله -عز وجل- وحده لا شريك له، لا يلتفت للمخلوقين، ولا يتصنع لهم بعمله، ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، فبيده مقاليد الأمور، وأن المخلوقين لا يملكون له قليلاً ولا كثيراً لا في الدنيا ولا في الآخرة، فيغسل يده منهم، هذه الخلاصة، هذه الآيات لمّا يذكر الله خلقه وتدبيره، وتصريفه للأمور، ثم يقول: {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} يورث هذا المعنى في نفس المؤمن، لا يتعلق قلبه بالمخلوق ولا يكون له أدنى التفات إليه مهما كان هذا المخلوق، ولو أن الناس توصلوا إلى هذا، وتجردت قلوبهم هذا التجرد لبلغوا مرتبة الإحسان، أن يعبد الله كأنه يراه، ولكن القلوب عليها ما عليها من الغفلة، فينسى الإنسان هذا فيضعف، فإذا ضعف بدأ يلتفت هنا وهناك، ويتعلق بالقشة.

وقوله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} أي: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} الآية.

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسُمْك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين.

هنا في آية السجدة، {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}، فيكون على هذا القول -قول مجاهد وقتادة والضحاك-: أن الألف سنة هو نزول الملك من السماء إلى الأرض ثم الصعود، هو ينزل في هذا الوقت اليسير، المرأة تكلم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتجادله في زوجها، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [سورة المجادلة:١] وهي عنده، وينزل الملك من السماء، فهذا النزول يقطع مسيرة خمسمائة عام نزولاً وخمسمائة عام صعوداً بالنسبة لحساباتنا نحن، والعادة أن مثل هذا إذا قيل: مسيرة كذا، أنه يقدر بسير الإبل القاصد، يعني المعتدل، والإبل تقطع في يومها وليلتها

في سيرها القاصد يعني مع الناس والأحمال، وتنزل ويستريحون بعد كل مرحلة من المراحل، تقطع ما يقرب من أربعين كيلومتراً في اليوم والليلة، فإذا حسبت لتتصور تقريب ذلك يعني خمسمائة سنة كم يقرب ذلك من الكيلومترات، فقط من أجل أن يتصور الإنسان أن الذهن يتوقف عند هذه الأمور، ولا يتصور عظمة هذا فقط مما قيل بأنه المسافة بين السماء والأرض، وأن أهل الفلك لم يدركوا شيئاً يذكر، يعني من عظمة خلق الله -عز وجل-، فكيف بالله -جل جلاله-؟!، فالمقصود أن هذا قول، مع أني لا أعلم حديثاً صحيحاً ثابتاً في المسافة بين السماء والأرض وما بين كل سماء وسماء، ورد فيها حديث لكن فيه ضعف، فهذا قال به جماعة من أهل العلم، أن المقصود هنا الصعود والنزول، وهذا اختاره ابن جرير، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ويكون اليوم الآخر في سورة المعارج **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}** [سورة المعارج:٤-١١] هذا يوم القيامة، فهما يومان، هذا الذي في سورة السجدة، هذا الذي يصعد وقت الصعود والنزول، والآخر في سورة المعارج هو يوم القيامة.

والذي ذكره الله -تبارك وتعالى- في سورة الحج **{وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}** [سورة الحج:٤٧]، أن هذه الأيام عند الله -عز وجل-، وبهذا يزول الإشكال، وأهل العلم لهم أقاويل في هذا غير ما ذكر، كقول بعضهم: إن ذلك جميعاً يرجع إلى يوم القيامة، **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}**، يوم القيامة، بعضهم يقول: باعتبار تفاوت أحوال الناس، المؤمن والكافر، فالكفار يطول عليهم جداً، فيكون بقدر خمسين ألف سنة، ويخفف على المؤمن، وبعضهم يقول: إن يوم القيامة أيام، ويقولون: إن اليوم لا يقصد به ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها مثلاً، وإنما العرب تعبر باليوم عن الوقت، يقولون: فلان له يوم، يعني له وقت يجد فيه غِبّ ما يفعل، فبعضهم يقول: يوم القيامة طويل جداً، وفيه أحوال وأوقات، بعضهم يقول: المقصود أحوال ليوم القيامة، فيحصل النزول والعروج في حال تكون بهذه المثابة، ألف سنة مثلاً، ومن يقول: أوقات يقول: من ذلك ألف سنة، ومن ذلك خمسون ألف سنة، فيحصل النزول والعروج يوافق الألف وقد يوافق أيضاً الخمسين ألفاً، هكذا يقول بعض أهل العلم، وبعضهم يقول غير ذلك.

وابن عباس -رضي الله تعالى عنه- لما سأله ابن أبي مليكة، توقف فيها قال: هما يومان الله أعلم بهما.

وتوقف سعيد بن المسيب -رحمه الله-، فقال له ابن أبي مليكة: سألت ابن عباس عنها، قال: فماذا أجاب؟ قال: توقف فيها، فقال ابن المسيب: إذا كان هذا حبر الأمة قد توقف فيها!.

قال: هما يومان، مع أنه جاء في بعض الروايات عن ابن عباس -رضي الله عنهما- تفسير ذلك بما سمعتم، أن الألف هو وقت النزول والعروج، وأن الخمسين ألف سنة هو يوم القيامة.

هذا القول من أقوال أهل العلم لعله من أوضحها وأبعدها عن الإشكال، والعلماء -رحمهم الله- ذكروا عن هذا أجوبه أخرى، لكن قد لا تخلو من بعد، فالله أعلم.

وقوله تعالى: {يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} أي: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [سورة الطلاق:١٢] الآية.

ولهذا قال تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي: المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، هو {الْعَزِيزُ} الذي قد عَزَّ كلَّ شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، {الرَّحِيمُ} بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

هذا الوصف الثالث الذي يتكلم عليه ابن القيم -رحمه الله- من اجتماع الوصفين، أو من اجتماع الاسمين، فالعزة قد تكون سبباً لشيء من الصلف، لكن عزة الله مع رحمة، كما أن الرحمة وحدها قد يكون فيها شيء من التذلل، ولكن رحمة الله -عز وجل- مع عزة، ومن فتح الله قلبه ونظر في القرآن بعين بصيرته، ورأى تصريف هذه الآيات، وذكر هذه الأسماء الحسنى عقب ما يذكره الله -عز وجل- من هذه المعاني العظام فإن ذلك يورث تعظيم المعبود -جل جلاله- في قلبه، ومراقبته، ويوحده العبد، ولا يلتفت إلى غيره، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (٧) إلى الآية (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} [سورة السجدة:٧-٩]: **يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها.**

وقال مالك عن زيد بن أسلم: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} قال: أحسن خلْق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** يعني: أحسن خلق الأشياء، والمراد بإحسان هذا الخلق هنا بعضهم يقول: باعتبار أنه موافق لحكمته، أنه لم يخرج عن الحكمة، خلق الله -عز وجل- الأشياء لحكمة، فجاءت متفاوتة في هذا الخلق بأحوالها وأطوارها وأشكالها وصورها، فلا يخرج شيء عن حكمته -سبحانه وتعالى-، وهذا جواب لسؤال يرد، وهو أننا نرى بعض الأشياء من المخلوقات ليست جميلة في صورتها وأشكالها، والله -عز وجل- يقول: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}**، والجواب بعضهم يقول: معنى **{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** يعني: أنه موافق لحكمته، أيًّا كانت صورته، فلا يعني جمال الصورة، وحسن المنظر، وبعضهم يقول: إن ذلك بمعنى الإحكام والإتقان، **{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** أي: خلقه خلقاً محكماً، متقناً، دقيقاً، تقول: فلان يحسن الصنعة، فلان حسن الصنعة، يعني: أن ما يصنعه يكون في حال من الإحكام والإتقان، وبعضهم يقول: هذا من العام المراد به الخصوص، هذا يقوله من حمل ذلك على جمال الصور وحسنها، أن المقصود بالحسن هو الحسن الظاهر، **{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}**، قالوا: هذا من العام المراد به الخصوص، ونحن نعرف أن العام على ثلاثة أنواع: عام باقٍ على عمومه، مثل: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** [سورة الزمر:٦٢]، فلا يخرج شيء عن هذا، **{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [سورة الحشر:٦]، ونوع عام مخصوص، يعني جاء دليل يخصصه، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوَءٍ}** [سورة البقرة:٢٢٨] مخصوص مثلاً بقوله: **{وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** [سورة الطلاق:٤]. ونوع يقال له: العام المراد به الخصوص، يعني: أنه خرج في اللفظ مخرج العموم، ولكنه أريد به معنى خاصاً، وإن كان لفظه عاماً، فهذا

لا يحتاج إلى دليل خارج يخصصه -دليل آخر-، فهذا مثل قوله -تبارك وتعالى-: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧] يعني: مما يصلح لذلك، ومعلوم أنه ليس كل ثمرات الدنيا تجبى إلى مكة، لاسيما وقت نزول الآية، وهكذا في قوله تعالى: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥]، وما دمرت الجبال، وما دمرت بيوت هؤلاء، وإنما هو عام مراد به الخصوص، أي: مما سيقت لتدميره، فهي جاءت لتدميرهم هم، وهذا الذي يسميه الشاطبي -رحمه الله- العموم الاستعمالي، فهنا {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} مَن حمله على حسن الظاهر، حسن الصورة، قال: هذا من العام المراد به الخصوص، المقصود الأشياء التي كانت بهذه الصفة، وليس جميع ما خلقه الله يكون بهذه المثابة من جمال الصورة، وهذا فيه بُعد، هذا أبعد هذه الأقوال -والله تعالى أعلم-، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن قوله: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} أنه يدخل فيه الإحكام والإتقان، ويدخل فيه أيضاً الحسن الظاهر، فالرجل الذي قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أسبل إزاره، ونهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا فاعتذر أنه أحمش الساقين، والحمش في الساقين معروف، أحمش يعني: فيهما دقة وميل، فهو يقول: إن في ساقيه عيباً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل خلق الله حسن))[1]، فهذا محمول على حسن الصورة، فيرِد على هذا بعض المخلوقات، فالشاهد أن القرد مثلاً في صورته غير حسن، والله أحسن كل شيء خلقه، والجواب عن هذا: أن الله -عز وجل- قد أحسن خلقه من حيث هو كذلك يعني باعتبار أنه قرد، أما ترى أن الناس يستملحونه ويقفون لمشاهدته ونحو ذلك، فهو بهذا الاعتبار الله أحسن خلقه، وانظر إلى أجمل الأشياء التي يتمثل بها الناس ويذكرونها في الجمال، ويشبهون أجمل النساء بها، من الظباء ونحو ذلك، لو قيل لأقبح نساء العالمين صورة: ما رأيك لو استُبدل رأسك برأس أجمل غزال، من يرضى بهذا؟ أليس ذلك يكون قبحاً لها؟ هو كذلك، فهذا الحيوان هو جميل من حيث كونه كذلك، أي حيوان، الطاوس يذكر في الجمال والحسن ونحو هذا، لو قيل لأقبح الناس وجهاً: يوضع لك رأس طاوس، يقبل هذا؟ ما يقبل، فهو جميل من حيث إنه كذلك، أي أنه طائر، لكن الإنسان أجمل خلقاً وأحسن ولو لم يكن له تلك الصورة مقارنة بغيره من بني جنسه، ولهذا قال الله -عز وجل-: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:٤]، فهذا يشمل صورته الظاهرة كما يشمل صورته الباطنة، فرأسه إلى أعلى، وجعله الله -عز وجل- بهذه المثابة من الخلق، لا يضاهيه شيء من المخلوقات، هذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم-، و{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، قال: **أحسن خلْق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر**، هذا ينقله عن زيد بن أسلم، المقدم والمؤخر، يعني فيه تقديم وتأخير، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، أحسن خلْق كل شيء، "كل شيء" هذه تكون مؤخرة، و"خلقه" هذه تقدم، أحسن خلْق كل شيء، و{أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}، يعني أحسن خلْق الأشياء، الخلْق مصدر، أحسن خلْق الأشياء، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}، ويمكن أن يكون من قبيل البدل، ويكون بدل اشتمال، يعني أنه ليس بدل كل من كل، ولا بدل بعض من بعض، إنما بدل اشتمال، هو بدل يعني صفة تحلى بها، مثل هذا تقول: أعجبني زيدٌ علمُه، فهذا: خلقه، أدبه، حياؤه، ونحو هذا من الأوصاف، فيكون من قبيل بدل الاشتمال،

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٧٢٤١).

فيكون عائداً إلى الشيء، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، أحسنه في الخلق، وبعضهم يقول: إنه بدل كل من كل، والضمير الهاء يرجع إلى الله إذا قلنا: إنه بدل كل من كل، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، وإما إذا قيل: إنه بدل اشتمال، فإنه يرجع إلى الشيء.

قال: أحسن خلق كل شيء، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، يعني: أعطاه الخلق اللائق به، الضمير يرجع إلى الشيء، أو {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} خلَقَه الله.

قال: ثم لما ذكر خلق السماوات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} يعني: خلق أبا البشر آدم من طين.

{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة.

{ثُمَّ سَوَّاهُ} يعني: آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً، {وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ} يعني: العقول، {قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ} أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله -عز وجل-، فالسعيد مَنْ استعملها في طاعة ربه -عز وجل.

هنا قوله: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}، نسل هذا الإنسان الذي خلقه من طين، وهو آدم -صلى الله عليه وسلم- {مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} يعني: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، يعني: تُسل من هذا وهذا، من صلب الرجل ومن ترائب المرأة.

وسميت سلالة بهذا الاعتبار، باعتبار أنها تُسل، والسَّل معروف، تُسل من الأصل وتفصل عنه، تقول: سَل كذا من كذا، سل الشعرة من العجين، وعبارة ابن جرير -رحمه الله- قريبة من هذا: انسل من الأصل فخرج عنه، أو الماء الذي انسل فخرج عن الأصل، عن الإنسان، وهي هذه النطفة، فهي تسل من الإنسان، وكما قال الله -عز وجل-: {خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [سورة الطارق:٦-٧]، فبعضهم يقول: صلب الرجل وترائب المرأة، وبعضهم يقول: {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} أن ذلك بالنسبة للرجل، والترائب هي: عظام الصدر، وهذا يدل على أن ذلك يخرج ويُسل من الإنسان بهذه الطريقة، وكأن ذلك يكون -والله أعلم- يسل من دمه؛ ولهذا فإن هذا الماء كما يقول الأطباء: فيه خلاصة الغذاء؛ ولذلك يضر بالإنسان كثرة خروجه، وإذا كثر خرج مختلطاً بالدم، وإذا تحرك في الإنسان فإنه يؤثر ذلك في أجزاء الجسد، فإذا خرج حصل الفتور في جميعه، وإذا تعسر أو امتنع وجد أثر ذلك في صلبه، وجد أثره في صلبه يعني: الألم، و{يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}، وهذا معنى السلالة، وأصحاب الإعجاز العلمي يقولون كلاماً آخر غير هذا، يصورون الحيوانات المنوية -كما ترون- لها مثل الرءوس يتبعها مثل الذيل، فيقولون: إن الرأس هذا هو الذي يلحق البويضة، ثم بعد ذلك يتلاشى ويذهب هذا الذيل، فهي بهذه الصورة صورة سلالة، هكذا يقولون، وهذا الكلام فيه نظر، وإنما السلالة ما يُسل من الشيء، ويستخلص منه أو يخرج منه، والله تعالى أعلم.

{ثُمَّ سَوَّاهُ} قال: **يعني آدم لما خلقه من تراب**، لماذا لم نقل: إنه الإنسان الذي خلق من النطفة؟ لا شك أن التسوية حاصلة له، لكن قوله: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ}، هذا كان لآدم -صلى الله عليه وسلم-، فهذه

قرينة تحدد أحد الاحتمالين في المعنى، يعني لو لم يكن هذا لقلنا: الله -عز وجل- سوى وخلق الأشياء جميعاً، فسواء الإنسان الأول الذي هو آدم -صلى الله عليه وسلم- خلقه في أحسن صورة، وأكمل صورة، طوله ستون ذراعاً في السماء، وعرضه سبعة أذرع، خلافاً لما يذكره أولائك الذين يتخرصون، ويقولون: الإنسان كان بصورة كذا، وكان بصورة كذا، ويذكرون حالة من التخلف في خلق الإنسان، ثم بعد ذلك بدأ يتطور، وهكذا يذكرون القرون والعصور، العصر الحجري، والعصر البرونزي، والعصر كذا، وما يذكره أيضاً بعض هؤلاء من أن الإنسان كان يعني يتبع الخرافة والسحر، ثم بعد ذلك بدأ يتعرف على الله وما إلى ذلك، فهذا كله كذب، الإنسان كان على الفطرة، وفي أحسن خلقة، وقد مضت أمم ممكنة وقوية وعندها حضارات لا زال بعض آثارها باقياً، وقد ذكر الله هذا في القرآن، فلا وجود لهذه العصور التي يتكلمون عنها.

قال: {وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ} يعني الروح هنا المقصود بها المخلوقة، فأضافها إليه تشريفاً، كبيت الله، وناقة الله، قال: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} يعني: العقول، {قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}.

{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [سورة السجدة:١٠-١١].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، {أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}؟ أي: أئنا لنعودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدْرَتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون؛ ولهذا قال: {بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}.

قوله: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} يعني: ذهبت أجسادنا وتحللت وتلاشت، والدفن يقال له: إضلال، ومنه قول الشاعر: فآبَ مُضلوه بعينٍ جليّة. يعني: من دفنوه، يتحدث عن ميت، وغُودر بالجولان حزمٌ ونائلُ، فالدفن يقال له: إضلال، وكذلك أيضاً الاضمحلال يقال له: إضلال، أو ضلال، أي ذهاب، تقول: ضل الماء في اللبن، إذا صب الماء على اللبن واختلط معه، فإنه لا يتميز هذا من هذا، ضل الماء في اللبن، {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} تحللت الأجساد وتلاشت، هم يستبعدون الإعادة ثانية.

قال: ثم قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في "سورة إبراهيم"، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان.

لم يثبت ذلك في الكتاب والسنة أن ملك الموت اسمه عزرائيل، ولكن الله قال: {مَلَكُ الْمَوْتِ}.

قوله: **وله أعوان**، هذا جواب عن سؤال وهو أن الله -عز جل- هنا قال: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}، فدلَّ على أن الذي يتوفاهم واحد، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} [سورة الأعراف:٣٧]، {رُسُلُنَا} جمع، فذكر جماعة من الملائكة، فهل الذي يتوفى هو ملك الموت -ملك واحد- أو أن ذلك قد وكل به جماعة من الملائكة؟ فالجواب: أنه ملك واحد له أعوان، فبعض أهل العلم يقول: إنهم ينتزعون روح الميت حتى إذا بلغت الحلقوم أخذها ملك الموت، وفي حديث البراء: ((لم يدعوها في يده

طرفة عين))[٢]، فالحاصل أن ملك الموت له أعوان من الملائكة، ولا يرِد على هذا أن الذين يموتون في اللحظة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها كثير، فإن قدرة الله -عز وجل- لا تقاس بما نشاهده، فعالم الغيب غير عالم الشهادة، وجاء في بعض الآثار التي لا يمكن أن يبنى عليها أن الله -تبارك وتعالى- يزوي له الأرض، ولا حاجة لمثل هذا، فالله -تبارك وتعالى- على كل شيء قدير.

قال: وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت.

قال مجاهد: حُويت له الأرض.

حويت له الأرض، يعني: كأنها جمعت له، الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [سورة الأنعام:٩٣]، هؤلاء الذي يظهر أنهم ملائكة العذاب، وليسوا أعوان ملك الموت.

قال مجاهد: حُويَت له الأرض فجعلت له مثل الطَست، يتناول منها متى يشاء.

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة السجدة:١٢-١٤].

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وقالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله -عز وجل.

إي وقالهم يعني: ومقالهم، يعني: وقولهم، يقال: وقالهم وقِيلهم وقولهم.

وقاموا بين يدي الله -عز وجل- حقيرين ذليلين، ناكسي رءوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم:٣٨]، وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [سورة الملك:١٠]، وهكذا هؤلاء يقولون: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا} أي: إلى الدار الدنيا، {نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق.

هنا قوله: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر ذلك بالاستجابة، {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}، هكذا فسره كما ترون، وكثير من المفسرين -ومنهم أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- فسروه بمعنى آخر {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} أي: أبصرنا ما كنا نكذب به، ما كنا ننكره، وما كنا نجحده من عقابك لأهل معصيتك، وسمعنا منك تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا، كما قال الله -عز وجل-: {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢]، بمعنى أنه تتلاشى عنه الحجب، ويبصر الحقائق، ويسمع فيعاين الحقيقة التي كان ينكرها ويكابر فيها، فيقول: أبصرنا وسمعنا، كأنهم يقولون: الآن عرفنا حقيقة ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنه كشف لهم عن الغيب، فصار الغيب في حقهم

---

٢ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٨٥٣٤)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٦٧٦).

شهادة، {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [سورة يس:٥٢]، لمّا يقولون: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا} فيقال: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}، فيرون هذه الأشياء ويعاينونها، {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}، ولازم ذلك الاستجابة، فكأن تفسير ابن كثير -رحمه الله- هو من قبيل التفسير باللازم، وأن المعنى الظاهر هو ما سبق -والله تعالى أعلم-، وعليه عامة المفسرين.

{نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} **أي: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله، كما قال تعالى:** {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [سورة الأنعام:٢٧] **الآية.**

وقال هاهنا {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}**، كما قال تعالى:** {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} [سورة يونس:٩٩].

{وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} **أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.**

يعني أن قوله: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} المقصود في الدنيا، يعني: إذا جعل الناس على الإيمان جميعاً، هداهم إلى الإيمان، ولكن سبقت كلمته -تبارك وتعالى- وحق القول منه.

حقت كلمته وسبقت أن يملأ النار من الجن والإنس، وبهذا تظهر معاني أسماء الله -تبارك وتعالى- وصفاته.

ومن أهل العلم من يقول: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} يعني: في ذلك الحين، في ذلك الوقت، في الآخرة يعني، حينما يعاينوه، وهذا غير صحيح.

قال: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} **أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناسٍ له،** {إِنَّا نَسِينَاكُمْ} **أي: سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى:** {الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [سورة الجاثية:٣٤].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كأنه جعل النسيان بمعنى الذهول عن المعلوم هو الأصل، وأن المعنى الآخر الذي هو الترك متفرع عنه؛ لأنه قال: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} يعني: تعاملتم معه تعامل الناسي له الذي لا يذكره، هذا معنى النسيان الذي هو بمعنى الذهول؛ لأن النسيان يأتي لمعنيين:

المعنى الأول: هو الذهول عن المعلوم، تقول: نسيت الكتاب، نسيت الموعد.

المعنى الثاني: يأتي بمعنى الترك والإعراض عن الشيء، تقول: فلان نسي أهله، فلان نسي قومه، فلان نسي أصحابه، فلان نسي نفسه حينما قال كذا، فالمقصود هنا الترك، فابن كثير -رحمه الله- لما فسره بمعنى الذهول قال عن نسيان الله -عز وجل- لهم في النار بأن ذلك من قبيل المقابلة، يعني أنه يعني ما يسمونه بالمشاكلة، أنه عبر بهذه اللفظة؛ لأنها جاءت في حقهم، فالشيء يذكر مع ما يقابله.

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه ليس من باب المقابلة، قال: **لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة،** فلا حاجة لهذا، المقابلة يقصد المشاكلة التي هي نوع من المجاز عند الكثيرين، ويزعم بعضهم أن قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ} [سورة الأنفال:٣٠] أنه من باب المشاكلة،

ويذكره بعض أهل السنة، ولكنهم يبدو قالوه متابعة لغيرهم ولم يتفطنوا إلى أنهم يقصدون بذلك المجاز، فصفة المكر ثابتة لله -عز وجل-، لكن حيث يليق ذلك ويحسن، فليست من الصفات التي تثبت لله -عز وجل- بإطلاق.

فهنا إذا فسر النسيان بمعنى الترك لا حاجة إلى أن يقال هذا -يعني أنه من قبيل المقابلة- إلا إذا أريد معنى آخر للمقابلة غير الذي ذكره ابن كثير، أن الجزاء من جنس العمل، فلما تركوا أمر الله -عز وجل- وتوحيده وراءهم ظهرياً تركهم الله -عز وجل- في النار وأعرض عنهم، فهذا يمكن أن يقال عنه: إنه قابلهم بذلك، وليست المقابلة المذكورة هنا التي هي من قبيل المشاكلة، {الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ} [سورة الجاثية:٣٤] بمعنى الترك، {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة:٦٧]، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، {نَسُوا اللَّهَ} يعني: بمعنى تركوا طاعته وتوحيده، {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} يعني: بمعنى أنهم أعرضوا عما يصلحها وينفعها واشتغلوا بما يضرها.

قال: وقوله تعالى: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا} إلى قوله: {فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} [سورة النبأ:٢٤-٣٠].

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة السجدة:١٥-١٧].

يقول تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا} أي: إنما يصدق بها {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً} أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً.

قال: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا} يعني: استمعوا لها، {إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً} استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، يعني كأنه فسر السجود هنا بمعنى السجود الحقيقي وضع الجبهة على الأرض، أو الخضوع والانقياد قولاً وفعلاً؟ الخضوع والانقياد قولاً وفعلاً.

قال: أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، فالسجود بعضهم يفسره بهذا في بعض المواضع، تجدون ذلك عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [سورة النحل:٤٩]، والسجود في تلك المواضع سجود حقيقي ولكن سجود كل شيء بحسبه، لكن قوله -تبارك وتعالى- هنا: {خَرُّوا سُجَّداً}، الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن المقصود به وضع الجبهة على الأرض، ويدل عليه قوله: {خَرُّوا سُجَّداً}، يعني: سجداً لوجوههم، {وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} يعني: وسبحوا الله في سجودهم بحمده؛ ولهذا نقول في السجود: سبحان ربي الأعلى، يعني {وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} نقول: سبحان ربي الأعلى وبحمده، يعني حامدين الله -عز وجل- ومنزهين له، فالتسبيح هو التنزيه، ويقرنون معه التحميد، سبَّحوا الله وحمدوه، فيكون هذا هو المعنى، وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، {خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} يعني: في السجود.

{وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} قال: أي عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر:٦٠].

يعني الآن الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير يعني ما حاصله الانقياد والاستجابة، هكذا فسر السجود، ولا يقال: إن هذا من قبيل الخطأ في التفسير، إذا رجح القول الآخر، وإنما ذلك من لوازم المعنى، وأهل العلم يفسرون تارة بهذا، وتارة بهذا، وتارة ببعض ما يتضمنه اللفظ، وتارة بما يشير إليه، يعني الإشارة عند الأصوليين، دلالة الإشارة، وليست الإشارة الأخرى التي في تفاسير الصوفية.

ثم قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ} يعني بذلك: قيام الليل.

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة.

الآن {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، {تَتَجَافَى} يعني: ترتفع وتنبو، فإن هذا هو أصل هذه اللفظة، جفا بمعنى نبا، وتنبو عن الفرش يعني ترتفع عن الفرش، فهذا يدل على النهوض، بمعنى أنه لا يبقى في فراشه يذكر الله -عز وجل-، فيقال: إن ذلك يصدق عليه، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} يعني لا يفسر أن هؤلاء يذكرون الله في مضاجعهم، ذكر الله في المضجع لا شك أنه محمود، ولكن ليس ذلك بمقصود في الآية، وإنما المقصود أنهم يرتفعون عن الفرش، يقومون.

قال هنا: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}، فذلك يصدق على الصلاة، يصلون، ويصدق أيضاً على أحوال أخرى كالدعاء، المقصود أنهم يقومون من الفرش للصلاة والدعاء، ويدخل في ذلك الذكر؛ لأن الذاكر هو أيضاً داعٍ لله -عز وجل-؛ لأن الدعاء يكون دعاء عبادة ودعاء مسألة، المقصود أنهم يقومون من فرشهم، فيفعلون ذلك، بين صلاة وذكر ودعاء.

وهنا قال: يعني بذلك قيام الليل، هذا المعنى -قيام الليل- هو الذي فسره به الجمهور، جمهور المفسرين سلفاً وخلفاً، وكما سبق أن ذلك يصدق على قيام الليل، ويدخل فيه دخولاً أولياً وكذلك من دعا الله -عز وجل- خارج الصلاة، أو ذكره فإنه يصدق عليه ما وصف في الآية.

أما الأقوال الأخرى التي أشار إلى بعضها كقول **الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة**، وهكذا بعضهم قال: صلاة العشاء هي التي يسمونها العتمة، فوجه ذلك أن هذا وقت نوم لغيرهم، صلاة العشاء في السابق كان الإنسان يحتاج معها إلى شيء من المجاهدة والانتظار؛ لأن من طبيعة الناس أنهم يستيقظون من الفجر ولا ينامون إلا في وسط النهار نومة القيلولة، فإذا جاء المغرب يكون الناس في حالة من التعب والإعياء، وطبيعة الحياة آنذاك لا تعين على السهر، فالظلام يعم كل مكان، والهدوء يعم كل مكان، ومن ذهب إلى القرى أو رأى القرى قديماً شاهد فيها هذا، كل مظاهر الحياة تنشلّ، فحينما يصلي الإنسان المغرب يبدأ الظلام يبدأ يتلمس الجدران في داخل البيت، فيحتاج إلى إيقاد السرج، ويعم الهدوء، فالناس يغالبهم النوم؛ لأنهم في أعمالهم، فيحتاجون إلى مجاهدة من أجل انتظار العشاء، كما أن الإنسان يحتاج إلى مجاهدة من أجل الاستيقاظ لصلاة الفجر، ففسر بهذا، وبعضهم فسره بصلاة العشاء {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

الْمَضَاجِعِ}، وتعرفون الحديث ((نام النساء والصبيان))[٣]، فكانوا حينما ينتظرون الصلاة أو إذا تأخر النبي -صلى الله عليه وسلم- في صلاة العشاء ناموا، يغالبهم النوم، فهذا وجه هذا التفسير، وقد جاء بإسناد صحيح عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عند الترمذي وغيره قال: نزلتْ في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة. وقول الصحابي: نزلت في كذا من قبيل التفسير غالباً، نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، ولا نستطيع أن نتجاوز هذا التفسير من أنس -رضي الله تعالى عنه- الذي يقال: إن أقل أحواله أنه من قبيل التفسير، يعني إذا ما قلنا: إن هذا سبب نزول، مع أنه لا يستبعد أن يكون هذا سبب النزول، لكنه غير صريح، فنحن نبقى على ما يمكن أن يكون معلوماً وهو أنه من قبيل التفسير، وما وراء ذلك من أنه من قبيل سبب النزول أمر مشكوك، فإذا قلنا: إنه من قبيل التفسير، فتفسير الصحابي بتلك المثابة التي تعرفون، فإن لم يوجد له مخالف فإنه يكون حجة، وبصرف النظر هنا عن كونه يوجد مخالف أو لا يوجد مخالف فابن جرير -رحمه الله- يقول: لا مانع من حملها على هذه المعاني؛ لأن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فيدخل في ذلك صلاة العشاء، ويدخل فيه صلاة الفجر، ويدخل فيه قيام الليل، فيرى أن هذا جميعاً مما يدخل في هذه الآية، وأنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع قياماً بهذه الفرائض وأيضاً والنوافل التي هي صلاة الليل، ويذكر مع هذا أن المتبادر أن المراد بذلك قيام الليل، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}، ولكن من قال: إن المراد بذلك صلاة الفجر والعشاء، أو صلاة العشاء مثلاً، لا يقال: إن هذا من قبيل الخطأ في التفسير مثلاً، وإنما هذا مما يدخل فيه، -والله تعالى أعلم-، وهذه الآية في وصف الذين يؤمنون بآيات الله -عز وجل- {إِنَّمَا يُؤْمِنُ}، جاء بأسلوب الحصر، {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، ثم ذكر صفة أخرى لهم {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ}، هذه وحدها تكفي لإيقاظ قلوبنا الغافلة، فيما يتصل بقيام الليل، لا يحتاج المسلم معها إلى غيرها من المواعظ في قيام الله، إذا أراد أن يتذكر شرف هذه العبادة، وأن ينظر في حاله من التقصير فإنه ينظر إلى هذا، {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، نحن نقف عند هذا فنسجد ونظن أن هذا هو نهاية المطاف، لكن الله قال: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} هذه صفتهم، {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}، وكأن هذه قرينة حملت الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على تفسير ذلك بالاستجابة.

{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} أي: **خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه.**

وهذا كثير في القرآن {يَدْعُونَ} الدعاء هنا يفسر بدعاء المسألة ودعاء العبادة، وهم يقومون الليل رجاء ما عند الله، فهذا سائل بفعله، وكذلك يسألونه أيضاً بقولهم في دعائهم ومسألتهم، يجمعون بين الخوف والرجاء طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه، وبهذا نعرف أن الذين يقولون مثلاً: ما عبدنا الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، أن هذا خلاف من أثنى الله عليهم في القرآن، واليوم أيضاً يسأل الناس عن بعض الرسائل التي

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب وضوء الصبيان، ومتى يجب عليهم الغسل والطهور، وحضورهم الجماعة والعيدين والجنائز، وصفوفهم، برقم (٨٦٢)، وفي كتاب التمني، باب ذهاب النساء والصبيان إلى العرس، برقم (٧٢٣٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها، برقم (٦٣٨).

تتداول في الجوال، أو بعض الوسائل الأخرى، يقولون مثلاً: لا تعبده حتى يعطي... أو اعبده حتى يرضى فإنه إذا رضي أعطى، كذا يقولون، رسالة متداولة، لا تعبده ليعطي وإنما ليرضى فإذا رضي أعطى، هذه فلسفة لا حاجة إليها، إنما يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، بعض الناس يطرب لمثل هذه العبارات، ويظن أن تحتها شيئاً، والواقع أن هذا مخالف لما ذكر الله -عز وجل- من صفة أهل الإيمان، فالمؤمن يعبد الله -عز وجل-، ويدعوه رجاء الثواب وخوفاً من العقاب، وطلباً لمرضاته.

قال: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

يقول: **فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية**، هناك قيام الليل وهنا **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}**، أو الصلاة إذا فسر بصلاة العشاء والفجر وقيام الليل فهذه عبادات لازمة، ومن العبادة المتعدية الإنفاق، واقتران الصلاة بالزكاة كثيراً في القرآن فذكرت عن هذا جوابين، الأول: أن سعادة العبد دائرة بين أمرين:

الأول: حسن الصلة بالله.

والثاني: الإحسان إلى الخلق، فحسن الصلة بالله يكون رأسه بالصلاة، صلة بين العبد وربه، والإحسان إلى الخلق رأسه الزكاة، والآخر: أن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، والعبادات إما مالية وإما بدنية، وهناك نوع تكلم فيه أهل العلم ولم يتفقوا وهو ما كان مركباً من هذا وهذا، يقولون: مثل الحج.

فهنا **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}**، "مِن" هذه يمكن أن يقال:إنها تبعيضية -والله أعلم-، فإذا فسرت بأنها تبعيضية فيؤخذ منه كما يقول بعض أهل العلم أنه لا يطلب إنفاق جميع المال، وإنما يمدح بإنفاق بعضه، والشارع لا يطلب إنفاق جميع المال، كما في أول سورة البقرة، **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}**، وذكرت هناك كلام الشاطبي -رحمه الله- في إنفاق جميع المال، وهل في النفقة في سبيل الله إسراف، وجاء الكلام على هذا عند قوله -تبارك وتعالى- في سورة الإسراء: **{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}** [سورة الإسراء:٢٩]، وكذلك أيضاً في قوله: **{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}** [سورة الإسراء:٢٦]، هل في النفقة في سبيل الله تبذير أو لا؟

فمن أهل العلم من يقول: إنه لا يطلب شرعاً أن ينفق جميع المال، ولا يمدح بذلك، ويحتجون بمثل: ((إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم فقراء عالة يتكففون الناس))[٤]، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وقال أيضاً: ((الثلث والثلث كثير))[٥]، هذا في الوصية، ولكن في النفقة أحسن ما رأيت في ذلك -والله تعالى أعلم- أن يقال: فيه تفصيل، لا يقال: إن ذلك لا يكون ممدوحاً محموداً شرعاً بإطلاق، وإنما يختلف باختلاف الناس، فأبو بكر -رضي الله عنه- تصدق بكل ماله فقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- منه، وعمر تصدق

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، برقم (٢٧٤٢)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

٥ - رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، برقم (٢٧٤٣)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

بشطر ماله فقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- منه، والرجل الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- معه قطعة من ذهب، فأعرض عنه، ثم تعرض له فأعرض عنه، ثم أخذها كالمغضب ورماه بها، وقال: ((يأتي أحدكم بماله ثم بعد ذلك..))، يعني يتكفف الناس، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، فالشاطبي -رحمه الله- يقول: إن ذلك يدل على أنه يكون الحكم فيه باعتبار اختلاف أحوال الناس، فمن كان بمرتبة من اليقين كأبي بكر -رضي الله عنه- لا يلتفت قلبه ولا يتشعب فينتظر عادة من المخلوقين أن يصلوه أو يعطوه، فهذا لا بأس أن ينفق جميع ماله ولا يكون في ذلك إسراف ولا تبذير، ومن كان دون ذلك فإنه لا يحمد بإنفاق جميع المال في سبيل الله.

قال: وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: ((لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت))، ثم قال: ((ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل))، ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، حتى بلغ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ثم قال: ((ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟))، فقلت: بلى، يا رسول الله، فقال: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله))، ثم قال: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)) فقلت: بلى، يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: ((كُفّ عليك هذا))، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ((ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُب الناس في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم))[٦]، رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، الترمذي: حسن صحيح.

قوله هنا في هذا الحديث: ((الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل))، ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، هذا من قبيل التفسير النبوي الذي جاء النص فيه على الآية المفسَّرة، فهذا يقال: إن قيام الليل داخل في هذا قطعاً، لكن هل المعنى أوسع من ذلك، فتدخل فيه صلاة العشاء وصلاة الفجر مثلاً؟ لكن لا يهون من قيام الليل، ولا يمكن أن يوقف عند مثل هذه الآثار المروية عن بعض السلف من أن ذلك المقصود به صلاة العشاء والفجر، ويكون الإنسان ممن يتجافى جنبه عن المضاجع، فإن هذا وحده لا يكفي ليتحقق فيه هذا الوصف، بالإضافة إلى أن قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى وهي قوله: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} [سورة الذاريات:١٧]، إذا نظرتم إلى أقوال المفسرين فيها تجدون أن بعضهم يفسر ذلك بمعنى -والله تعالى أعلم- غير مراد لله -عز وجل- في الآية، ولا يدل عليه السياق، {كَانُوا قَلِيلًا

---

٦ - رواه الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢٢٠١٦)، وقال محققوه: "صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع، أبو وائل -وهو شقيق بن سلمة- لم يسمع من معاذ، وعاصم بن أبي النجود صدوق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين"، والنسائي في السنن الكبرى، برقم (١١٣٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥١٣٦).

مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، فبعضهم يفسرها أن المعنى: أن "ما" نافية، يعني أن الوقت الذي لا يهجعون فيه قليل، يعني ما فسرها بأنها موصولة، قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه يعني: لا يهجعون إلا وقتاً يسيراً، وأكثر الوقت يصلون، ويقومون الليل ويدعون الله -عز وجل-، ففسرها بعضهم بأن "ما" نافية، قليلاً من الليل ما يهجعون، باعتبار أن المراد بذلك أن الوقت الذي يصلون فيه أو يستيقظون فيه هو وقت قليل، وهل يُمدحون بهذا، هل الآية سيقت هذا المساق لمدح أقوام لا يقومون إلا قليلاً، لا يصلون من الليل إلا قليلاً ما يتركون الهجوع إلا قليلاً؟، ليس هذا المراد، وليس هذا ما يدل عليه السياق، وهنا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}.

قال: وقوله تعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} الآية، أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لَمّا أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاءً وفاقاً؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر، رواه ابن أبي حاتم.

هذه لفتة جميلة من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- والحسن البصري، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}، قال: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، لمّا أخفوا عملهم -فإن قيام الليل أبعد ما يكون عن الرياء عادة؛ لأن الناس لا يطلعون عليه- أخفى الله جزاءهم، {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، وفي قراءة حمزة، {فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم من قرة أعين}، يعني يقول الله: ما أخفيه لهم، وفي قراءة غير متواترة: {من قُرّات أعين}، يعني ما تقر به العين من ألوان النعيم، والله المستعان.

وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

ذكر أمرين: أخفوا العمل فأخفى الجزاء، {قُرَّةِ أَعْيُنٍ} لما كانوا في حال من القلق على الفراش {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} عوضهم بقرة الأعين.

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-: قال البخاري: قوله تعالى: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} الآية، ثم روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))، قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: فاقرءوا إن شئتم: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[٧]، رواه مسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي رواية للبخاري: ((ولا خطر على قلب بشر، ذُخْراً مِنْ بَلْهَ ما أُطْلِعْتم عليه))[٨].

قوله: ((ذخراً)) هنا متعلق بأعددت، ((أعددت لعبادي))، يعني: جعلت ذلك مذخوراً لهم، أعددت لعبادي الصالحين أعددت لهم ذخراً، الذخر هو الشيء المذخور، قال: ((من بَلْهَ))، هذه ليست في رواية البخاري،

---

٧ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم، في أوائل كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، برقم (٢٨٢٤).

٨ - رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، برقم (٤٧٨٠).

و"مِن" هذه زائدة، قال الخطابي وجماعة من أهل العلم: إنها مقحمة، وإنما: ذخراً بلهَ ما أُطلِعتم عليه، يعني: في القرآن والسنة، أي أمور لم تسمعوا بها، بَلْهَ يعني: سوى، يعني: عدا، تقول مثلاً: لك في الجنة كذا وكذا وكذا بله ما نطلع عليه، تقول: فلان موصوف بكذا وكذا وكذا بلْهَ، يعني: فضلاً عن، سوى أمور مثلاً، وأخرى لم نطلع عليها، أو لا تعرفها.

تقول: فلان مقصر في كذا وكذا بله حقوق الوالدين والأولاد مثلاً، يعني: سوى حقوق الوالدين، يعني: إضافة إلى حقوق، عدا حقوق، يعني هذا الذي ذكرناه ينضاف إليه حقوق الوالدين والأولاد، وهكذا، يعني هذا فضلاً عما أُطْلِعتم عليه.

قال: وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))[٩]، رواه مسلم.

هذا وصف جامع في الجنة، ينعم ولا يبأس، ولك أن تسرح بالذهن في قوله: ((ينعم))، هكذا بإطلاق، وتأكيد ذلك أيضاً بقوله: ((لا يبأس))، يعني: لا يحصل له أمر لا معنوي ولا حسي مما يكره، لا حزن ولا غم ولا هم ولا غل ولا حسد ولا ضيق صدر، لا يحصل له ملل، ولا يحصل له ضيق من شيء من الأشياء، ولا يسأم من نعيم -الإنسان يسأم ما يلابسه كثيراً-، وأيضاً لا يحصل له مرض ولا صداع، ولا ألم ضرس، ولا إزعاج، ولا يرى أشياء يكرهها، ولا يسمع عن أشياء يكرهها، إلى غير ذلك من الأمور التي كل أحد يمكن أن يسرح ذهنه فيما يمكن أن يصل إليه هذا الذهن مما يعرفه من مفردات البؤس والنكد الموجود في الحياة الدنيا، إذا سمع المؤمن مثل هذا عرف الدار الحقيقية التي ينبغي أن يشمر في العمل لها، وهان ما يلقاه من نعيم أو بؤس في هذه الحياة الدنيا، فهذا مَعْبر، ليس هذا المعوَّل، سواء حصّل فيه أو لم يحصّل من حطام هذه الدنيا، هناك حيث لا يحصل له بؤس ولا أمر يكرهه، لا يفنى الشباب ولا تبلى الثياب، والله المستعان.

{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نزلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [سورة السجدة:١٨-٢٢].

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حُكمه يوم القيامة مَنْ كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذِّباً لرُسُله إليه، كما قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [سورة الجاثية:٢١]، **وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}**

---

٩ - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: {وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف:٤٣]، برقم (٢٨٣٦)، ولفظه: ((من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه))، وأحمد في المسند واللفظ له، برقم (٨٨٢٧)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، يحيى بن إسحاق: هو السَّيْلحيني، وأبو رافع: نفيع الصائغ المدني نزيل البصرة، وثابت: هو ابن أسلم البُنَاني".

[سورة ص:٢٨]، **وقال تعالى**: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} **الآية، ولهذا قال تعالى هاهنا**: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ} **أي: عند الله يوم القيامة.**

هنا الذي حمل ابن كثير -رحمه الله- على تفسير ذلك بكونه يوم القيامة، أن الله -تبارك وتعالى- قال: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نزلا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ}، فهذا تفصيل لما سبق، وتبيين له، فهذه القرينة، فهذا لا إشكال فيه، لا يستوون يوم القيامة، ولكن نفي الاستواء يحمل على أعم معانيه، فهم لا يستوون في حياتهم وصفاتهم، ولا يستوون عند مماتهم، ولا يستوون في البرزخ، ولا يستوون في القيامة، ولا يستوون في منازلهم التي يصيرون إليها، الجنة أو النار، لا يستوون من كل وجه؛ ولهذا في الآية الأخرى التي ذكرها {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ} [سورة الجاثية:٢١]، فهم لا يستوون في الحياة ولا يستوون في الممات أو بعد الممات؛ ولهذا فإن الله -تبارك وتعالى- يعد أولياءه في الدنيا بالسعادة والانشراح، أمور ذكرها الله -تبارك وتعالى- في مواضع من كتابه، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [سورة النحل:٩٧]، فوعدهم بالحياة الطيبة، المقصود بالحياة الطيبة يعني: ما يحصل للمؤمن من الانشراح والسعادة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، والمقصود بها هذا، وهذا يتفاوت الناس فيه تفاوتاً كثيراً، ولكن الإنسان قد يخفى عليه بعضه، وإذا أردت أن تنظر قد لا يصل الإنسان إلى مراحل من اللذة والسعادة لضعف إيمانه وكمالاته، فلربما يسمع هذا الكلام ويستشكل، لكن دعنا مما يحصل لعامة الناس، وأعطيكم مثلين لمن ينظر من الخارج، بعض من أسلم من رجال الاستخبارات الغربية أيام الاستعمار، رجل كان يعيش في الصحراء الكبرى، مع البادية والرعاة، ولا تسأل عن حال أولائك في ذلك الوقت من الجهل والبدع والخرافة، أليس كذلك؟، ومع ذلك الرجل كان يتعجب من حياتهم، جاء من أوروبا ويتعجب من حياة هؤلاء، ولفت نظره ما هم فيه من السكينة، واليقين، وهدوء البال، وراحة النفس، والطمأنينة، والبعد عن القلق وما إلى ذلك، يقول: تأتي رياح فتهلك ما عندهم، تأتي أوبئة فتهلك مواشيهم، ونجد أن هؤلاء يقولون: الحمد لله هذا قضاء الله وقدره، يقول بكل بساطة، ولا ينجم عن هذا اكتئاب، وانهيار وما أشبه ذلك، كان يتعجب من حال هؤلاء الناس، فلفت نظره ذلك، وعرف أن هذا يرجع إلى دينهم وإسلامهم.

المثال الثاني: ذكره محمد أسد، وهو رجل معروف، جاء من أوروبا ثم أسلم، أظنه جاء من النمسا وكتب "الطريق إلى مكة" وكتب كتاباً آخر، فذكر في رحلته لما جاء مع زوجته، جاء إلى مصر وذهب مروراً ببلاد الشام، ثم ذهب إلى تركيا وركب القطار، وهو ذاهب إلى أوروبا في القطار من تركيا إلى أوروبا فكان يرى الناس الذين ركب معهم القطار في مصر مثلاً والذين رآهم في بلاد الشام وكذا غير الوجوه التي رآها وهو متجه إلى أوروبا، فكان يقول لزوجته: أما ترين الفرق؟ الذين كنا نراهم في مصر والشام وجوه غير هذه الوجوه، يعني غير الأوروبيين، فكان ينظر إلى وجوه الأوروبيين ينتابها القلق، وجوه قلقة، هو يقول هذا، هو رجل منهم، فكان يذكر هذا لامرأته، وتوافقه على هذا، تقول: نعم، صحيح، الوجوه تلك غير هذه الوجوه، حياة قلقة، ولذلك إذا ذهبت إلى أوروبا تجد حياة أخرى تماماً، الناس في الصباح مثلاً عندما تنظر إليهم على

الأرصفة مملوءة بالبشر يمشون، تجد المشي بطريقة مسرعة، والحياة سريعة وقلقة، وتشعر أنك مشدود متوتر، كل الناس، يعني طريقة الحياة طريقة غير عادية، وإذا ذهبت إلى بلاد المسلمين تجد سكينة وهدوءاً، وإذا أردت أن تنظر إلى هذا في بلد واحد اذهب إلى كينيا مثلاً، إذ أنا ذهبت إلى نيروبي هي كأنها بلد غربية، لكن ألوان الناس سوداء، فتجد أنماط الحياة الغربية من اللباس، والكفر بالله -عز وجل-، وما أشبه ذلك، لأنها كانت مستعمرة بريطانية، فتجد الناس نفس الطريقة في الحياة الغربية، فإذا ذهبت إلى الشرق في مُمْبَسّا مثلاً وهي تعتبر ساحلاً إسلامياً تجد الحياة تختلف تماماً، هي حياة المسلمين التي تعرف من الهدوء والسكينة والسكون، ليس فيها ذاك القلق والتوتر الذي تراه في نيروبي، فهذه أمور أنا ذكرتها من أجل أن الإنسان قد يقف مع بعض المعاني التي يسمعها ويقول لضعف إيمانه: أنا لا أجد هذه الجنة التي يتكلم عنها شيخ الإسلام، لا أجد هذه اللذة التي تذكرون، نقول: الذين ينظرون من الخارج يرون الفرق بين هذا المسلم وبين ذاك الكافر، وأنا أتعجب كيف يعيشون، أعني الكفار، كيف يستطيعون أن يعيشوا؟!، إنسان بعيد عن الله لا يعبد ولا يعرف الله، كيف يعيش، تنتابه المخاوف من كل جهة، الإنسان لو فاتته صلاة الفجر في يوم من الأيام ما يقدر يعيش ذاك اليوم، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ليس في النوم تفريط))[١٠]، لا يستطيع أن يعيش ذلك اليوم، يشعر أن الدنيا كلها مقفلة، ولا يريد أن يرى شيئاً، ولا يرى أحداً، ولا يكلم أحداً، هؤلاء الذين لا يعرفون الله ولا يصلون ولا يسجدون له كيف يعيشون؟!

فالمقصود أن قوله: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ}، لا يستوون من كل وجه، ويدخل في هذا دخولاً أولياً أنهم لا يستوون في جزائهم في الآخرة، بقرينة أن الله قال: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

قال: وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّيّ وغيرهما: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وعقبة بن أبي مُعَيط.

هذه جاءت في عدد من الآثار وهي من قبيل المراسيل، ولا يصح من ذلك شيء في سبب النزول، أنها نزلت في علي وفي عقبة بن أبي معيط، يعني أن عقبة بن أبي معيط افتخر على عليٍّ -رضي الله تعالى عنه-، وتطاول عليه، فنزلت الآية {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا} يعني: عقبة، ولكن ذلك لا يصح، فالآية عامة.

قال: ولهذا فَصَّل حكمهم فقال: {أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات.

تفسير الإيمان بالتصديق هذا تجدونه في عبارات بعض أهل العلم، وهو كثير في كلام ابن جرير، ولكن إذا عرف أن قائل ذلك ليس من الإرجاء في شيء، وليس من المرجئة في شيء فإن ذلك غاية ما هنالك أن يقال: إن العبارة لو كانت أدق لكان أولى، نعرف أن الإيمان إذا ذكر مع الأعمال الصالحة فيكون الإيمان باعتبار ما يكون في القلب، وهذا الذي في القلب، فهل الإيمان هو التصديق في اللغة؟

---

١٠ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم (٦٨١).

الإيمان في اللغة تصديق خاص، أي تصديق انقيادي بمعنى الإقرار، أقرب ما له الإقرار، أقرب ما يفسر به الإقرار والإذعان القلبي، وليس مجرد التصديق، وشيخ الإسلام في كتابه الإيمان الكبير ذكر نحو سبعة فروقات في اللغة بين الإيمان والتصديق، ابن جرير كثيراً ما يقول: آمنوا صدقوا، مع الفرق بين هذا وهذا.

قال: {فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى} أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية.

يعني التي يأوون إليها، {جَنَّاتُ} الجنات هي البساتين، {جَنَّاتُ الْمَأْوَى} هذه البساتين فيها القصور والمساكن التي يأوون إليها.

قال: {نُزُلاً} أي: ضيافة وكرامة.

باعتبار أن النُّزل هو ما يعد للضيف.

{بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا}.

الباء هنا تكون سببية، يعني بسبب ما كانوا يعملون، فالعمل سبب لدخول الجنة، ولكنه غير مستقل، يعني ليس بسبب تام، وإنما لابد من وجود السبب والشرط، تحقُّق الشرط وانتفاء المانع، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك هو الذي يعبر عنه أحياناً بالسبب التام، يعني الذي يحصل بعده المسبَّب، فالعمل سبب لكنه لا يستقل ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))[11]، فالباء هنا لا تدل على المقابلة.

قال: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا} أي: خرجوا عن الطاعة، {فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا}

كقوله: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} الآية.

قال الفُضَيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

{وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

كما قال الله -عز وجل-: {وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ}، المقمعة: حديدة لها مثل الرأس فيضربون بها، نسأل الله العافية.

قال: وقوله تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ} قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه.

وروي مثله عن أبيّ بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النَّخَعِي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجَزَري، وخصيف.

العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، بعضهم يقول: المقصود بالعذاب الأدنى ما ذكر، وهذا الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم فسره بالقتل، ما وقع لهم من القتل يوم بدر، العذاب الأدنى، وبعضهم فسره بعذاب القبر، {مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ}، وأن العذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة، وبعضهم يقول: المقصود بذلك سنين الجوع التي حصلت لهم بمكة، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ}، وابن جرير -رحمه الله- عممه فيما يقع لهم في الدنيا، يعني دون عذاب القبر، ليس عذاب القبر، لماذا، ما القرينة؟

---

١١ - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٦)، ولفظه: ((لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة))، وأحمد في المسند، واللفظ له، برقم (٧٤٧٩)، وقال محققوه: "صحيح، وهذا إسناد ضعيف، زياد المخزومي متابعٌ".

القرينة أن الله قال: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، في عذاب القبر لا يمكن أن يرجعوا ويتوبوا وينيبوا إلى الله -جل جلاله-، هذه قرينة، وبعض أهل العلم فسر ذلك بعذاب القبر، {الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ}، قال: هذه الآية يستدل بها على إثبات عذاب القبر، وأنكره آخرون.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا ما يخفي على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا؛ ولهذا قال: {مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى} ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمله"[١٢].

هذا لا تكاد تجد مثله في كتب التفسير، تجد الرد مباشرة أن هذا غير صحيح، وبعيد، وبعضهم قد يقول: أبعد النجعة من قال: إنه عذاب القبر؛ لأن الله قال: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فلا رجوع في عذاب القبر، فابن عباس هنا يوجه ابن القيم -رحمه الله- كلامه يقول: الله قال: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى}، فمِن هذه تبعيضية، فمن العذاب الأدنى ما يقع لهم في الدنيا من الآلام والأحزان والهموم، والمصائب، والحدود كما يقول بعض السلف التي تقام على المنافقين مثلاً، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}، فهناك عذاب أدنى وعذاب أكبر، دلت عليه هذا الآية، العذاب الأدنى ما يقع من هذه الأمور في الدنيا، لكن ليس هذا كل العذاب الأدنى، هذا منه، إذاً منه بقية أخرى وهو ما يقع في القبر، فهذا الذي يقع لهم في الدنيا هو جزء، هو من بعض العذاب الأدنى، إذاً فيه عذاب أدنى وعذاب أكبر، فعذاب القبر من الأدنى، لكنه غير مراد بهذه الآية هنا بقرينة {مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى}، لكنه أيضاً واقع لهم؛ لأنه قال هنا: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} من العذاب والمصائب إلى آخره، لكنه واقع لهم بالفعل أنهم يعذبون في قبورهم؛ لأنه بقي لهم بقية من العذاب الأدنى، هذه الطريقة تتكرر في كلام ابن القيم -رحمه الله-، وهي من أنفع ما يكون لطالب العلم.

قال: وقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا} أي: لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة، -رحمه الله-: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن مَنْ أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرَّة، وأعوز أشد العوَز، وعظم من أعظم الذنوب؛ ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} معنى هنا {وَمَنْ أَظْلَمُ} أن هذا الاستفهام مضمن معنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، وذكرنا هناك أنه يرد على هذا سؤال معروف، وهو أن الله قال في موضع آخر: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [سورة البقرة:١١٤]، وفي موضع آخر قال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

---

١٢ - كتاب الروح، لابن القيم (٧٦).

افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} [سورة الأنعام:٢١]، وما شابه ذلك، السؤال هو: إذا كان المعنى: لا أحد أظلم من هذا، فتارة قال: لا أحد أظلم **{ممَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}** ، وتارة قال: **{مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}**، وتارة قال: **{مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}**، وللجمع بين هذه الآيات للعلماء جوابان:

الجواب الأول: أن أفعل التفضيل، **{وَمَنْ أَظْلَمُ}** -لا أحد أظلم- لا تمنع التساوي، وإنما تمنع أن يزيد أحد هؤلاء على الآخر، فحينما تقول مثلاً: فلان أكرم أهل البلد، وفي مناسبة أخرى تذكر شخصاً آخر وتقول: فلان أكرم أهل البلد، لا تعارض بحيث إن أفعل التفضيل "أكرم" لا تمنع التساوي، ولكن تمنع أن يزيد أحدهما على الآخر، فيكون كل واحد بلغ في الكرم غايته مما يصلح لمثله، يعني لكن لا تمنع التساوي، فهؤلاء كلهم قد بلغوا المرتبة العالية في الظلم، سواء كانوا من المانعين لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أو ممن ذُكّروا بآياته فأعرضوا عنها، أو ممن افتروا على الله كذباً، كلٌّ بلغ في الظلم غايته ولا إشكال أن يقال عن هذا أو هذا أو هذا.

الجواب الثاني: أن كل واحد منها يختص ببابه، ففي باب المنع لا أظلم **{ممَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}**، وفي المفترين لا أحد أظلم **{مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}**، وفي المعرضين لا أظلم **{مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}**، فيحمل كل واحد على باب يخصه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (٢٣) إلى الآية (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [سورة السجدة:٢٣-٢٥]: **يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى -عليه السلام- أنه آتاه الكتاب وهو التوراة.**

وقوله: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}: قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء، ثم روى عن أبي العالية الرّياحي قال: حدثني ابن عم نبيكم -يعني ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أُريتُ ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلا آدم طُوَالاً جَعْداً، كأنه من رجال شَنُوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار والدجال، في آيات أراهن الله إياه))[1]**، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، أي: أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- نقل هذه الأقوال التي رأيتم أن المراد موسى -عليه الصلاة والسلام-، يعني ليلة المعراج، أو ليلة الإسراء، سواء قيل: إن هذه السورة نازلة قبل الإسراء، فيكون ذلك في المستقبل، أنك ستلقاه، أو كانت السورة نازلة بعد الإسراء والمعراج، بمعنى أنك لقيته، وعبارات أهل العلم منها ما تجد فيه أنه يقول: سيلقاه. يعني: في ليلة المعراج، لكن هذا بناء على وقت نزول السورة، هل كان قبل المعراج أو كان بعده؛ ولهذا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جاءت عباراته غير مقيدة، بمعنى أن ذلك المقصود به ما كان من لقاء موسى ليلة المعراج، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، وبعضهم يقول: إن ذلك في القيامة، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} يعني: في الآخرة، وبعضهم يقول: إن المقصود بقوله: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} يعني: من لقاء موسى الكتاب، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، من لقاء موسى الكتاب الذي هو التوراة، الذي أنزله الله -عز وجل- على موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا اختيار الزجَّاج، ولا يخلو -والله أعلم- من بعد؛ لأن هذه القضية لا يمتري فيها أحد، وما كان أهل الكتاب ولا أهل الإشراك يجادلون فيها، لم تكن محل جدال، كانت قضية معلومة مسلمة، لا إشكال فيها.

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، برقم (٣٢٣٩).

وبعضهم كالحسن يقول: {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ} يعني: لقاء ما لقي موسى -صلى الله عليه وسلم- من التكذيب والأذى، فيكون الضمير يرجع إلى غير مذكور، لكن الأصل أن الضمير حينما يرجع إلى غير مذكور أن يكون ذلك مما يفهم من السياق، وهنا لا يوجد ما يدل عليه من السياق، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ}، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، يعني من لقاء موسى، والله تعالى أعلم.

قال: وقوله: {وَجَعَلْنَاهُ} أي: الكتاب الذي آتيناه {هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، كما قال تعالى في سورة الإسراء: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلا} [سورة الإسراء:٢].

يعني الآن هذا تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُ} يحتمل أن يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، باعتبار أنه المحدّث عنه، وأنه أوتي الكتاب، ومن ثَمّ قيل: إن قوله: {فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} يرجع إلى موسى، ولم نقل: إنه يرجع إلى أقرب مذكور وهو الكتاب؛ لأن الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، فلماذا لم نقل مثلاً: إنه هنا يرجع إلى الكتاب، فلا تكن في مرية من لقائه؛ لأن المحدث عنه موسى -صلى الله عليه وسلم-، والمعنى أوضح حينما يقال: فلا تكن في مرية من لقاء موسى، بخلاف ما لو قلنا: فلا تكن في مرية من لقاء الكتاب، ثم أيضاً هنا: {وَجَعَلْنَاهُ}، جعلنا الكتاب الذي هو آخر مذكور، أو جعلنا موسى -عليه الصلاة والسلام-، ابن كثير -رحمه الله- حمله على الكتاب، وفسره بقوله: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، {وَجَعَلْنَاهُ}، وبعضهم يقول: إن الضمير يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، جعلنا موسى هدىً لبني إسرائيل، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو يتوافق مع القاعدة التي ذكرناها مراراً أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فيكون ذلك يرجع إلى موسى، جعلنا موسى هدى لبني إسرائيل، وهذا قال به قتادة من التابعين، ولو أن بين القولين ملازمة فالقول: إن ذلك يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، فجعله الله هدىً لبني إسرائيل وذلك بما أنزل عليه من التوراة، فكتابه الذي أنزل عليه كان هدى، -والله تعالى أعلم-، ومن ثم لا نحتاج إلى الترجيح، وفيما يتعلق بالحديث الذي ذكره هنا: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصف موسى قال: ((رجلاً آدم)) يعني: فيه سمرة ((طوالاً)) يعني: طويل القامة، ((جعداً)) يعني: مثل شعر العرب يقال له: جعد، بخلاف عيسى -عليه الصلاة والسلام-، ((سبط الرأس)) مثل: شعور الأوربيين، وهنا قال: ((كأنه من رجال شنوءة)) يعني: القبيلة المعروفة الأزد -أزد شنوءة-، التي منها غامد وزهران، فإنهم يرجعون إلى الأزد -أزد شنوءة-، ((كأنه من رجال شنوءة))، يعني: فيه ضخامة وطول وقامة ممتدة -عليه الصلاة والسلام.

قال: وقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم لما بدلوا وحرَّفوا وأوَّلوا، سُلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاد صحيحاً؛ ولهذا قال: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا} قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا، وكذلك قال الحسن بن صالح.

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا.

ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ} **الآية، كما قال هنا:** {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} **أي: من الاعتقادات والأعمال.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}، في قراءة حمزة والكسائي: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا}، يعني تكون اللام للتعليل، {لِمَا صَبَرُوا} يعني: بسبب صبرهم، والإمام المقصود به من يقتدى به في الخير، المقدم في ذلك، وليس المقصود به الملك، والإمارة ونحو ذلك؛ ولهذا في قوله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [سورة البقرة:١٢٤]، فإن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ما وعده الله -عز وجل- {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} يعني: بالملك، وما طلب ذلك لبنيه قال: {وَمِن ذُرِّيَّتِي}، ومن ثَم فلا يشكل قوله -تبارك وتعالى-: {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، أنه يوجد من الظالمين كثير من أصحاب الولايات والملك، مع هذه الآية، {لاَ يَنَالُ عَهْدِي} بالإمامة، وإنما المقصود الإمامة في الدين.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}، فـ"مِن" هذه تحتمل أن تكون تبعيضية، يعني جعل بعضهم أئمة يهدون بأمرهم، فيكون المراد بذلك العلماء وقبلهم الأنبياء؛ لأن الأنبياء من بني إسرائيل كثير، فصاروا أئمة للناس، ولا يختص ذلك بالأنبياء -والله تعالى أعلم-؛ لأن جميع الأنبياء وليس فقط أنبياء بني إسرائيل يهدون بأمر الله، وهم أئمة في الدين والصبر والدعوة والخير، ولكن المقصود هنا غير الأنبياء، ولذلك قدمته في الذكر على الأنبياء، يعني من العلماء من بني إسرائيل؛ بسبب صبرهم ويقينهم، ولهذا قالوا: تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين، الصبر على طاعة الله -عز وجل- وترك معصيته، والصبر على أقداره بأنواعها، الأقدار المؤلمة، وكذلك أيضاً الصبر على الأمور المحبوبة من الغنى ونحو ذلك من النعم، فإنها تحتاج إلى صبر، من أجل أن لا يفضي ذلك بصاحبها إلى الخروج عن طاعة الله -عز وجل-، والطغيان، فهناك صبر في حال النعمة، وصبر في حال المصيبة، فتنة السراء والضراء، يحتاج الإنسان أن يصبر، فإذا صبر وكان عنده يقين فإنه بذلك تحصل له الإمامة في الدين، فلابد من الابتلاء، فإذا صبر الإنسان اجتاز، وصار إماماً يقتدى به، ولا يزيده البلاء إذا صبر عليه، وأيقن بما هو عليه من الحق لا يزيده ذلك إلا رفعة، وهذا أمر مشاهد.

قال: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}، عبارة سفيان هذه، وقتادة قال: **لما صبروا عن الدنيا،** فهذا مما يدخل في الصبر، صبروا عنها بمعنى أن أطماعهم لم تتعلق بها، وإنما كانوا يريدون الآخرة، فالمعنى لا يختص بهذا -والله أعلم-، ولكنهم ذكروه للحاجة إلى التنبيه عليه، وإلا فلا يخفى عليهم أن الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على أقداره، عن هذا جميعاً، لكن هنا نوع من الصبر يغفل عنه كثير من الناس وهو الصبر عن الدنيا، قال سفيان: **هكذا كان هؤلاء،** هذه العبارة في غاية الأهمية، وهي قوله: **ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا،** ليس المقصود بذلك أنه يترك الكسب المباح، وطلب الرزق، فإن الله -عز وجل- وصف الأنبياء بأنهم يمشون في الأسواق، فهذا لا إشكال

فيه، ولا يكون الإنسان عالة على الناس، وإنما المقصود بذلك أن يتعلق الطمع بها، فيكون مزاحماً لأهلها منافساً لهم في دنياهم، فمثل هذا لا تكون له الإمامة في الدين، إذا كان الإنسان يتهافت على الدنيا ولو بالمباح، عالم ولكنه حريص على الدنيا، ينافس أهلها، تجده في ألوان التجارات، ويبيع المخططات العقارية، ومن أغنى الناس ليس عن مال ورثه مثلاً، وإنما بسبب تجارته ومزاحمته لأهل الدنيا، فمثل هذا لا تكون له الإمامة في الدين، ولو كان عنده علم، هذا المقصود، فيحتاج إلى شيء من الزهد بهذا الحطام، وأن يأخذ منه ما يكفيه ويغنيه عن الناس، أما التوسع في هذا والاشتغال به، وتتبع هذه الأمور بحيث لا يكون بينه وبين أهل الدنيا والمشتغلين بجمع حطامها لا يكون هناك فرق، مثل هذا لا تكون له الإمامة في الدين، حتى يتحامى من الدنيا، والله المستعان.

وهذه الآية لا تختص ببني إسرائيل، فإن العلة المذكورة **{لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}**، مَن تحقق ذلك فيه حصلت له الإمامة في الدين، فإن الله أخبر أنه جعلهم كذلك لهاتين العلتين، والمقصود باليقين هنا يقين المرء بما هو عليه من الحق، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يتزعزع، وكذلك اليقين بوعد الله، فلا يحصل له شك واضطراب، فيثبت على ما هو عليه، أما الذي يحصل له تردد وشك حينما يرى إعراض الناس، أو يبتلى، أو يبدأ يراجع ما هو عليه من الحق، ويبحث عن مخرج وطريق آخر يقبله الناس، ولو كانوا على انحراف وضلال، كأن يتماشى معهم في أهوائهم ورغباتهم فلا يسخطون عليه، فمثل هذا لا يكون إماماً في الدين، وليست العبرة بكثرة المشاهدين، فهذا لا يعني الإمامة في الدين، فنحن نشاهد من أهل الضلال من لهم جمهور كبير، سواء كانوا يتكلمون باسم الدين، أو كانوا من أهل الشهوات، وإذا أردت اقرأ في أخبار القساوسة في هذا العصر، ورجال الدين عند النصارى مثلاً، تجد أن الواحد منهم في برامجه التي يقدمها في قنوات فضائية تجد أرقاماً هائلة، هذا يتابع برنامجه مائتا مليون، وهذا يتابع برنامجه مائة مليون، فيتحدثون بهذه الأرقام، ومن الدعاة إلى الله -عز وجل- والعلماء من يتابع برنامجه مائة مليون، فهل هذا يعني أن أولائك على حق، يتابع برنامجه مائة مليون من حطب جهنم، ثم ماذا؟ **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}** [سورة يوسف:١٠٣]، **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}** [سورة الأنعام:١١٦]، فليست هذه هي الإمامة في الدين، ولا يكون لهؤلاء لسان صدق، والله المستعان.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** قال: **أي من الاعتقادات والأعمال**، يعني: كأن ابن كثير -رحمه الله- أجراه على ما قبله، وإن لم يكن كلامه صريحاً، إلا أن يكون في الأصل شيء آخر، يعني أن ذلك في بني إسرائيل أن ربك هو يفصل بينهم، والسياق هو في بني إسرائيل، **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ}** فالضمير يرجع إلى بني إسرائيل، مع أن ابن جرير -رحمه الله- حمله على جميع الخلق، ولا شك أن الله -عز وجل- يفصل بين جميع الخلائق يوم القيامة، وهذا يدل عليه آيات كثيرة في القرآن، ولكن السياق هنا في بني إسرائيل.

قوله: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}** ما معنى بأمرنا، ماذا قال ابن كثير فيها؟ قال: **يهدون إلى الحق بأمر الله**، عبارة ابن كثير محتملة، **{يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}**، يحتمل أن يكون المراد بأمرنا أي: بأمرنا لهم، يعني

أمرناهم بذلك، بسبب أمرنا لهم أن يهدوا الناس ويرشدوهم، والمعنى الثاني: {يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} أن هدايتهم تكون بما أمر الله به، والله -عز وجل- أمر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأهل العلم أن يبينوا للناس، وأخذ عليهم العهد في ذلك والميثاق {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [سورة آل عمران:١٨٧]، فهذا أمره -تبارك وتعالى- لهم، وكذلك أيضاً إنما يرشدون الناس بما أمر الله به، ويعظونهم بذلك، فيعلمونهم شرعه، فهذا كله حق، والله أعلم.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ} [سورة السجدة:٢٦-٢٧].

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر، {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [سورة مريم:٩٨]؛ ولهذا قال: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [سورة الأعراف:٩٢]، كما قال: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} [سورة النمل:٥٢]، وقال: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} إلى قوله: {وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٥-٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة، {أَفَلا يَسْمَعُونَ} أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}، يهد لهم يعني: يبين لهم، {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ}، فكم هذه تدل على التكثير، قرون كثيرة أهلكها الله -عز وجل-، وقوله: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} هذا المشهور وهو ما ذكره ابن كثير، الذي عليه عامة المفسرين، يعني أن المشركين يمشون في مساكنهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، وبعض أهل العلم قال: {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} إن ذلك يرجع إلى المهلَكين، كانوا يمشون في مساكنهم ثم صارت خاوية خالية، ليس فيها أحد، لكن الأول هو الظاهر المتبادر، يعني أن المشركين يمشون في مساكنهم، ومع ذلك لا يتعظون ولا يعتبرون، هذا في ذلك الزمان، وأما في زماننا هذا فالأمر أشد، حيث صارت أماكن المعذبين أماكن للفرجة والنزهة، وهؤلاء الذين يأتونها أبعد ما يكونون عن الاعتبار، وإنما يعتبرون هذا نوعاً من السياحة والترويح والتسلية، والتقاط الصور، وما إلى ذلك، ولذلك تجد أن الكثيرين لربما يمرون على أماكن المعذبين قديماً أو يرون، يرى العالم بأسره ما يقع من العذاب المدمر المهلك لبلاد طويلة عريضة، ومع ذلك لا تكاد تجد من يعتبر، آخر ما حصل في اليابان، ومن الذي يعتبر؟، تتحول بيوتهم إلى هشيم، إلى حطام، ومع ذلك تجد هذه القوى التي يحتكرونها، أعني القوى النووية ويهددون بها العالم، ولا يملكها إلا هؤلاء الذين يعدون أنفسهم من العالم الأول، أصحاب القوى العظمى، تجد أنها تتحول إلى عبء، وخطر وشبح يهدد حياتهم بعدما كانوا يهددون به الناس، فهم يترقبون في أي لحظة أن يقع لهم زلزال، ثم بعد ذلك يكون هؤلاء هم ضحايا ما

شيدوه وبنوه وأنفقوا فيه الأموال، ولطالما خوفوا به الضعفاء، ومن تسلطوا عليهم عدواناً وظلماً، واليابان ليست بمنأى عن هذا، فإن أمريكا على لسان رئيسها السابق بوش صاحب الحرب الثانية في العراق، ذكر لما أعلن النصر أنهم انتصروا بالتكنولوجيا اليابانية، فاليابان داخلة معهم في حروبهم، وتقدم لهم، وهي تابعة لهم كما هو معلوم.

فالاعتبار اليوم صار أقل، بل لو قال قائل -كما حصل في تركيا وغيرها، عندما حصل الزلزال وكذا، لما تكلم بعض الخطباء-: إن هذه عقوبة من الله ينبغي أن نعتبر بها، استُدعوا وحُقق معهم، ووجهت إليهم تهمة، كيف تقولون: عقوبة؟ ورأيتم ما حصل في إندونيسيا وفي غيرها، ورأيتم بالصور الأعاصير المحرقة التي تحولهم في لحظات إلى شيء آخر، ومع ذلك لا تجد من يعتبر، يعني: هؤلاء إذا نزل بهم بأس الله -عز وجل- هل يتوبون، يراجعون أنفسهم؟ أبداً لا يزدادون إلا كفراً وغياً وضلالاً وبعداً عن الله -جل جلاله.

قال: وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ} يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته.

قال: وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السَيح، وهو: ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته؛ ولهذا قال تعالى: {إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ}، وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [سورة الكهف:٨]، أي: يَبَسًا لا تنبت شيئاً؛ ولهذا قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ}، كما قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} [سورة عبس:٢٤-٢٥] الآية؛ ولهذا قال هاهنا: {أَفَلا يُبْصِرُونَ}.

قوله: {إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ} قال: **هي التي لا نبات فيها**، الجرز: أصل ذلك من الجَرز وهو القطع، فالأرض الجرز يعني: كأنها التي قطع نباتها، وليس ذلك معنياً بالضرورة، ولكن المقصود يعني كما عبر عنه: **لا نبات فيها**، كأنه قطع نباتها؛ لعدم الماء، بمعني أرض جرداء لا حياة فيها لا نبات فيها، ولا يفهم من هذا أنها الأرض التي لا تُنبت، الأرض الجرز، كما هو ظاهر عبارة بعض المفسرين، وإنما المقصود الأرض الميتة؛ لعدم نزول الماء، أو لعدم وجود الماء فيها، لعدم الماء، الأرض الجرز، وإلا لو كانت لا تنبت فإنها لا تستفيد من الماء وهي سباخ، ولكن الله -عز وجل- قال هنا: {فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا}، فدل على أنها تنبت، فالله -تبارك وتعالى- ينزل الماء على الأرض الصالحة لذلك القابلة له، وتارة تكون الأرض لا تنتفع بالماء الذي ينزل عليها من المطر؛ لطبيعة أرضها ولكنه يسوق إليها الأنهار من أماكن أخرى كأرض مصر، ومضى هذا، فهنا هذا هو المراد -والله تعالى أعلم-: {أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ}، لكن ليس ذلك بقاطع أيضاً، يعني سَوْق الماء هنا، {أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ}، وذكر ابن كثير -رحمه الله- المعنيين، يعني لا يفهم بالضرورة هنا أنه يسوق الماء من الأماكن الأخرى عبر الأنهار، وإنما يسوق إليها الماء، ماء المطر، ويسوق إليها الماء عبر الأنهار، فهذا وهذا.

يقول: ليس المقصود بذلك أرض مصر على سبيل الحصر، وإن كانت مقصودة قطعاً، هذا كلام ابن كثير؛ لأن بعض المفسرين يمثل، والذي يظهر -والله أعلم- من {الْأَرْضِ الْجُرُزِ}، أنهم حينما يذكرون مصر يقصدون على سبيل التمثيل، وإلا فذلك لا يختص بها، يقول: لأن أرضها رخوة، فإذا كثر نزول المطر عليها تهدمت أبنيتها، فيكون ذلك ضرراً، فيسوق إليها الماء من أماكن أخرى، ويحمل هذا الماء معه من الطين ما يكون صلاحاً لأرضها، لكن سوْق الماء لا يعني بالضبط، أو لا يعني بالضرورة، أو لا يعني بالتحديد سوق الماء عبر الأنهار، ولكنه يكون بهذا وهذا، مما يتصل بهذه الآية -والله تعالى أعلم-، باعتبار ما يفسر به الجرز، الأرض الجرز، -والله أعلم-.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة السجدة من الآية (٢٨) إلى نهاية السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} [سورة السجدة:٢٨-٣٠].

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ}؟ أي: متى تُنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتًا تُدال علينا، ويُنْتَقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين!

قال الله تعالى: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ} أي: إذا حَلَّ بكم بأس الله وسخُطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة، {لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}، كما قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} الآيتين، ومَنْ زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النّجْعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله تعالى: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله: {فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا} [سورة الشعراء:١١٨] الآية، وكقوله: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} الآية، وقال تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [سورة إبراهيم:١٥]، وقال: {وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، وقال: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} [سورة الأنفال:١٩].

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}**، الفتح مضى في بعض المناسبات أنه يأتي بمعنى الحُكم والفصل، ولهذا يقال للحاكم: فاتح، وفتاح، ويقال للحُكم: فُتاحة، ومنه قول الشاعر:

*** فإني عن فُتاحتكم غَنِيّ

يعني: عن حكمكم، وهؤلاء طلبوا الفصل بين الفريقين، وقالوا: اللهم من كان منا أقطع للرحم... إلى آخر ما ذكروا، قالوا: فأحنه الغداة، لما خرجوا إلى بدر، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- أيضاً طلبوا الفتح بينهم وبين أقوامهم من المكذبين، **{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ}** [سورة الأعراف:٨٩] يعني: احكم بيننا وبين قومنا بالحق، فهذا الفتح هنا في هذه السورة أو في هذه الآية ما المراد به؟ **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**، هنا يقول: أي متى تُنصر علينا يا محمد كما تزعم، ويُنتقم لك منا؟، فهذا النصر الذي يكون عليهم يقال له: فتح؛ لأن الله فصل فيه بين الفريقين، ولهذا قال هنا: **{قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ}** أي: إذا حل بكم بأس الله

وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة، فجمع المعنيين: في الدنيا والآخرة؛ لأن من أهل العلم من يقول: إن هذا الفتح المقصود به الذي يتساءلون عنه ويستبعدونه وهو القيامة، ما يكون في الآخرة، فهذا قال به بعض السلف كمجاهد، وبعضهم يقول: ما حل بهم يوم بدر، {مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، فحصل النصر على هؤلاء وقتلوا ورموا بالقليب، فكان ذلك فصلاً من الله -تبارك وتعالى- بين الفريقين، وفسره ابن جرير -رحمه الله- بالعذاب الذي ينزل بهم، هكذا من غير تحديد، والذي حمله على ذلك -أن يقول العذاب- هي القرينة التي بعده، أن الله -تبارك وتعالى- قال: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}؛ ولهذا فإن ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن المراد بالفتح يعني: القضاء والفصل، وأنه ليس المراد به فتح مكة؛ لأن فتح مكة النبي -صلى الله عليه وسلم- أطلق فيه المشركين، والله -عز وجل- يقول: {قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ} قال: أي: **إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة**، إذاً هذا الفتح المقصود هنا في هذه الآية لا ينفع بعده إيمان، فمن قال: إن المراد بذلك ما يكون في الآخرة فهذا واضح لا إشكال فيه، وعبارة ابن كثير كما رأيتم: إذا حل بهم بأس الله في الدنيا والآخرة، كيف يكون هذا في الدنيا، كيف نوجه كلام ابن كثير؟، أو ما الذي قصده ابن كثير؟ الذي عناه بذلك هو أن هذا إن حمل على ما يقع لهم في الدنيا فالمقصود به ما لا ينفع بعده إيمان، وهو عند معاينة الموت كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يعني عند قتلهم، أو إذا قتلوا، الفتح: كان ذلك بقتلهم يوم بدر مثلاً، إذا قيل ذلك أو أن ذلك مما يدخل فيه فكيف نوجه هذا القول؟ نقول: {لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ} يعني: حينما عاينوا الموت، ولقوا حتفهم، فعندئذٍ لا ينفعهم الإيمان ولا تقبل منهم توبة ولا يستطيعون الرجوع، فهذا أيضاً يمكن أن يحمل عليه كلام ابن جرير -رحمه الله- الذي فسره بالعذاب وأطلقه، ما قال: في الدنيا ولا في الآخرة، لكنه احتج بالذي بعده {لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}، إذن هو عذاب لا يمكن معه الخلاص، ولا ينفع معه الإيمان، فصار عندنا كلام ابن كثير وقبله ابن جرير، وبعده الشنقيطي يدور حول هذا المعنى، أنه فصل من الله -تبارك وتعالى- لا ينفع معه ولا ينفع بعده إيمان، ولا يستطيعون الرجوع.

يمكن في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ} [سورة الأنعام:١٠٦] الآية، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله: {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [سورة الطور:٣٠]، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غبّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} أمره بالإعراض، {وَانْتَظِرْ} بعضهم يقول: إن هذه الآية نسختها آية السيف، كما هو معلوم، يقولون: إن آية السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية، يعني كل آية فيها إعراض عن المشركين أو صفح وغفر فيقولون: منسوخة بآية السيف، والمقصود بها الآية الخامسة من سورة

براءة، وهي قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [سورة التوبة:٥]، وهذا فيه نظر، وإنما المقصود بذلك كما قال الله -عز وجل-: {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [سورة النجم:٢٩]، بمعنى لا تشغل نفسك بهم ولا تحزن لعدم إيمانهم، هذا هو المراد، وآية السيف لم تنسخ هذا القدر الذي يذكرونه، والله تعالى أعلم.

{وَانْتَظِرْ} قال: **انتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وينصرك على من خالفك**، {وَانْتَظِرْ}، انتظر نصر الله، وانتظر أيضاً ما ينزل بهؤلاء من العذاب بسبب تكذيبهم، قال: {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}، وهم منتظرون لماذا؟ الحافظ ابن كثير هنا حمله في أول كلامه على تربصهم به -عليه الصلاة والسلام-، يعني: أنت تنتظر نصر الله، ويمكن أن نزيد: تنتظر ما يقع بهم بسبب التكذيب، وهم منتظرون ما ينزل بك، يتربصون بك الدوائر، هذا المعنى صحيح، ولكن {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} يمكن أن يحمل على معنى آخر ذكره ابن جرير -رحمه الله- ورجحه، وهو أنهم منتظرون ما تعدهم من العذاب، ومجيء الساعة، {وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- الأخيرة: **وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم**، فهذه العبارة تشير إلى المعنى الثاني الذي ذكره ابن جرير، {وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ} منتظرون ما يقع لك من المكروه، أو منتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله -عز وجل- في الدنيا والآخرة.